

## "الكتاب المقدس عند الصوفية : أنموذج لاحتواء الآخر"

د. صابر سويسبي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان - تونس

تمهيد :

يحتلّ المقدس الديني مكانة مميّزة في حياة الشعوب جعلته قادرا على التحكم في طبيعة العلاقات البشرية وتوجيهها باعتباره مؤثرا وفاعلا في البنية الاجتماعية والثقافية والذهنية. وهو ما أثبتته التجربة التاريخية في مختلف مراحلها، فكثيرة هي الحروب التي نشبت وحملت شعارات دينية أكسبتها طابع القداسة، وعديدة هي المعاهدات والمواثيق التي أبرمت باسم الدين أو اتخذته ذريعة لها أو مطية لنيل الشرعية...

ومازلنا إلى اليوم نشهد عمق تغلغل الظاهرة الدينية في وجدان الشعوب وقوة تأثيرها وفعاليتها في نحت معالم شخصيتها وهويتها وتوجيه سلوكها وضبط قيمها. ولا عجب حينئذ في أن ينتصر كلّ لعقيدته ويرى فيها الكمال ويعمل على الذود عنها والحفاظ عليها والاحتجاج لها، وطبيعي أن يمتدّ الجدل ويتواصل بين أصحاب الديانات المختلفة حول جوهر الحقيقة الدينية ومكوناتها وأن يدّعي كلّ امتلاكها ويثّهم الآخر بالعدول عنها أو وهم معرفتها وتحصيلها فيقصيه من دائرة "المقدس" (1).

---

(1) تختلف ههنا زوايا رؤية المقدس، فما يراه المسيحي مثلا في عقيدة التثليث مقدسا يراه المسلم عدولا وانحرافا عن القداسة فلكل تصور خاص ومختلف للمقدس. (انظر في هذا السياق تعريف المقدس في فصل "sacré" ضمن "Encyclopédia universalis". أو مقال : "المقدس : المصطلح والمفهوم" لعبد العلي الدكالي. ضمن : مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد-119، 118، ربيع/صيف 2001، صص 56-73).

وليس من الغريب إذًا أن نجد صدى لهذا الجدل وأثره في سلوك المسلم وعلاقته بالآخر ونظرته إليه سواء كان صاحب ديانة أخرى أو حتى مذهب مخالف له داخل المنظومة الإسلامية نفسها. مما يجعل الظاهرة الدينية خاضعة لشبكة معقدة من العلاقات المبنية على ثنائيات الاتصال والانفصال والإثبات والنفي والمركز والهامش.. ومهما ارتفعت شعارات حرية المعتقد والتسامح والتحاور والتعايش السلمي.. فإنّ الجدل والصراع حاصلان وإن اختلفت درجاتهما استنادا إلى زوايا نظرة كلّ طرف إلى الآخر.

وتبدو انمساخه أكثر خطورة وحساسية إذا ما مسّت عقيدة كلّ طرف وأصولها الرئيسية وأثارت الشكوك حولها.. وهذا ما نلمسه مثلا في تاريخية الخلاف بين المسلمين وسائر الديانات حول مصداقية النصوص الدينية المعتمدة في الاعتقاد والتشريع ضمن ما يسمى مثلا بقضية تحريف اليهود والنصارى لكتبهم السماوية <sup>(1)</sup>، وهي قضية تجد لها جذورا في النص القرآني والحديث النبوي وتحكي أطوار علاقة الرسالة المحمدية باليهود والنصارى إبان الدعوة إلى الإسلام <sup>(2)</sup> وقد تطورت هذه العلاقة عبر التاريخ واتخذت أشكالا شتى ونتج عنها موقف مشوب بالحذر، محكوم بنزعة إقصائية كثيرا ما تتعامل مع الآخر تعاملًا احترازيا وتتنظر إليه نظرة اتهام وطعن بلغت حدّ التكفير استنادا إلى آيات قرآنية <sup>(3)</sup>.

---

(1) مازالت هذه القضية حاضرة ومؤثرة إلى اليوم في الفكر الديني وقد عقدت حولها عدة مؤتمرات وندوات وحُبرّت فيها كتب كثيرة والباحث في شبكة الانترنت يجد مواقع عدة تطرقت إليها وتوسعت فيها وتبنّت مواقف مختلفة إزاءها بلغت حدّا من التعصب والتهجم على الآخر. ويمكن الرجوع مثلا إلى مقالين نشرّا على شبكة الانترنت : - "رأي القرآن بالكتاب المقدس" <http://www.thegrace.com/a-quran1.htm>

- "صحة وحى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وعدم وصول أي تحريف إليه" لناشد حنا [http://www.arabicbible.com/arabic/a\\_bible/a\\_bible\\_inspiration\\_of\\_the\\_bible.htm](http://www.arabicbible.com/arabic/a_bible/a_bible_inspiration_of_the_bible.htm)

(2) انظر مثلا : محمد عابد الجابري : مدخل إلى القرآن الكريم : الجزء الأول : في التعريف بالقرآن. الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر، 2006. صص 200-210.

(3) الحكم بالتكفير ورد في عدد غير هين من الآيات القرآنية وتوجّه أحيانا إلى أصحاب الكتب السماوية ممّن أنكر الرسالة المحمدية أو عدل عن عقيدة التوحيد وانحرف عنها ونذكر أمثلة على ذلك الآية 89 من سورة البقرة ونصها : "وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ" والآيات 17 و 72 و 73 من سورة المائدة، ونصها : الآية 17 : "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ

وقد ترسّخت هذه النظرة في الضمير الجمعي الديني الإسلامي بدرجات متفاوتة وتعمقت سلبيتها أحيانا لتتحول إلى نظرة عدائية ترى في الآخر مخادعا منافقا، ضالا ومضللا. وكثيرا ما يتم استحضار جملة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأخبار التاريخية لتبرير هذه النظرة وتاصيلها مثل :

- "وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا... فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ... وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ.. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ" (1).

- "مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّا بِالسِّنِّتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ" (2).

- حديث نبوي نقله الدارمي في سننه ومضمونه : "أخبرنا محمد بن العلاء حدثنا ابن نمير عن مجالد عن عامر عن جابر أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنسخة من التوراة فقال : يا رسول الله هذه نسخة من التوراة فسكت فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغير فقال أبو بكر : ثكلتك الثواكل ما ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فنظر عمر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم.. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل ولو كان حيا وأدرك نبوتي لاتبعني" (3).

- خبر رواه النسائي في سننه وفيه : "أخبرنا الحسين بن حريث قال أنبأنا الفضل بن موسى.. عن ابن عباس قال كانت ملوك بعد عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام بدّلوا التوراة والإنجيل.. " (4).

---

الله هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ.. " . والآية 72 : " لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ.. " والآية 73 : " لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ.. " .

(1) سورة المائدة، الآيات 12-13-14-15.

(2) سورة النساء، الآية 46.

(3) موسوعة السنة : الكتب الستة وشروحها، المجلد 19، سنن الدارمي، ج1، ص95.

(4) المصدر السابق، المجلد16، سنن النسائي، ج8، صص231-232.

فغالبا ما ترد مثل هذه الآيات والأحاديث والأخبار برواياتها المختلفة لتزكية تخطئة الآخر واستهجان سلوكه تجاه نصوصه وعقيدته واتهامه بالعدول عن طريق الحقّ ومن ثم رفض اللجوء إليه أو الاحتكام إلى شرعته واتباع مناهجه.. وبات من المسلم به لدى عامة المسلمين أنّ الكتب السماوية المتداولة بين اليهود والنصارى محرقة عن الأصل بفعل تصرف الرواة فيها عبر التاريخ وطمسهم لبعض حقائقها بالزيادة والنقصان ممّا يهدّد سلامة الإيمان وصفاء التوحيد عندهم، وواجب من ثمّ الحذر منها ومن أصحابها وعدم الخوض فيها (1).

وقد وضعت وفق هذا الاعتبار شروط عدّة لتقبل الآخر والتواصل معه، منها اعترافه برسالة الإسلام وإيمانه بها، أو اتخاذ نصوصه الحاملة لقصص الأنبياء أداة لمجرّد الاعتبار والموعظة، أو اعتماد تشريعاته التي يقرها القرآن ويدعو إلى العمل بها استنادا إلى ما جاء في الآية 48 من سورة المائدة ومنتها "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِثْقَلًا شِرْعَةٍ وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا

(1) يمكن أن نشير هنا إلى مسألة الإسرائيليات وتسريبها إلى كتب الحديث النبوي وتفسير القرآن وما أحدثت من ردود فعل تجاهها (انظر مثلا : رمزي نعناعه : الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير. الطبعة الأولى، دار القلم، دار الضياء، بيروت، 1390 هـ / 1970م). و نذكر أيضا عددا من الآيات القرآنية التي تنهم اليهود والنصارى بمحاولة التضليل من قبيل الآيتين 69 و71 من سورة آل عمران ومنتها : "وَكُنْتُمْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ" و"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ". كما يمكن أن نذكر حديثا نبويا أورده البخاري في صحيحه في مواضع عدة (كتاب الحدود/كتاب المناقب..). وكثيرا ما يستحضر للبرهنة على خداع اليهود وتحريفهم للتوراة وهو الحديث المتصل بآية الرجم ومنتها : "حدثنا عبد الله ابن يوسف أخبرنا مالك بن أنس عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ اليهود جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنذكروا له أنّ رجلا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تجدون في التوراة في شأن الرجم فقالوا نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام كذبتم إنّ فيها الرجم فأثروا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم قالوا صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما.. ". (موسوعة السنة : الكتب الستة وشروحها. المجلد2، صحيح البخاري، كتاب المناقب، ج4، ص186). مع العلم أنّ هذا الحديث نفسه يتخذ أيضا للبرهنة على جواز الاحتكام إلى ما ورد في التوراة والإنجيل من تشريعات.

الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" (1). فقد اتخذت الهيمنة في الآية دلالات الأمانة والحفظ والرقابة والشهادة (2) لا التغلب والسيطرة.

وتعدّ هذه الشروط إجراءات احترازية لا تمس من الدعوة الجوهرية للإيمان (3) بالنبوات والشرائع السماوية السابقة للرسالة المحمدية، فقد فرض النص القرآني والحديث النبوي الإيمان بالإنجيل والتوراة والزبور وسائر الكتب السماوية مع التحذير ممّا لحقها من تجاوز وتحريف يمنع الركون والاطمئنان إليها بالصيغة التي يتداولها اليهود والنصارى...

ولكن يبدو أنّ مثل هذا التحذير والاحتراز قد تمّ تجاوزه في عرف رجال التصوف الإسلامي الذين لم يكتفوا بالاستدلال بنصوص من التوراة والإنجيل أو من الكتب السماوية السابقة بل تبوّأ مقالاتها دون تحرّج أو إثارة لمسألة التحريف وقد صدر سلوكهم هذا في التفاعل مع الآخر عن تصور مميز لمفهوم الكتاب المقدس يتعدّى معايير الإقصاء والاتهام ولا يتوقف عند مجرد التأثير إذ ينتقل إلى طور تمثّل هذه المقالات واستيعابها واحتوائها لتصبح من أصول التجربة الصوفية عبر استدعاء مفاهيم "الحب" و"الذوق" و"الحقيقة المحمدية" و"وحدة الأديان".. وجميعها مفاهيم تبوّأها وباتت مركزية في تجربتهم وهي تسوّغ لهم الأخذ عن الآخر والتفاعل مع نصوصه وتمنحهم آليات خاصة تمكنهم من التمييز بين ما هو أصل وما هو محرّف في هذه النصوص إذ تنفذ بهم إلى باطنها وتطلّعهم على مقاصدها وغاياتها فلا يضلّهم لفظها أو تحجبهم عباراتها

---

(1) اعتمد الفقهاء كلمة "مهيمن" لتمرير مقولة الأخذ بتشريع من سبق.

(2) انظر مثلاً: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مج2، صص74-75.

(3) يعدّ الإيمان بجميع الرسل والكتب السماوية السابقة للقرآن شرطاً من شروط الإيمان في الدين الإسلامي انظر مثلاً سورة البقرة، الآية285 ونصّها: "أَمَّنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ". وانظر أيضاً الحديث النبوي حول مفهوم الإيمان والإسلام والإحسان في كتاب الإيمان من صحيح البخاري مثلاً ونصّه: "حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَخْبَرَنَا أَبُو حَيَّانَ الثَّمِيمِيُّ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزاً يَوْمًا لِلنَّاسِ فَاتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ مَا الْإِيمَانُ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تَوَظَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبَلْقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتَوَظَّنَ بِالْبَيْتِ.."

عن إدراك أسرارها وعلومها وحقائقها<sup>(1)</sup>.. وهو ما يجعل الكتاب المقدس في عرفهم نموذجاً فعالاً للتفاعل الإيجابي مع الآخر بغية تقريب الشقة بينهم وبينه ومحاولة احتوائه وإذابة الاختلافات القائمة وصهرها في دائرة واحدة هي دائرة التوحيد الإلهي قولاً وفعلًا واعتقاداً.

## I. في مفهوم الكتاب المقدس :

لابد من الإشارة بدءاً إلى أنّ نعت المقدس للكتاب لم يرد في النص القرآني، إنما هي عبارة درج استعمالها للتعبير عن القرآن والتوراة والإنجيل خاصة. وإن كنا لا نعدم حضور استعمالات أخرى لها عند كل من له كتاب يحمل معاني عقيدته أو انتمائه أو له عنده منزلة مخصوصة.. وفق تنوع دلالات القداسة<sup>(2)</sup>.

كما أننا لن نخوض في مفهوم الكتاب من الناحية اللغوية<sup>(3)</sup> والاصطلاحية<sup>(4)</sup> وسنكتفي باستحضار ما درج في كتابات المفكرين المسلمين

---

(1) يستند بعض الصوفية في هذا الاعتقاد إلى جعفر بن محمد الصادق في قوله : "مازلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته تعالى" إذ يورده أبو طالب المكي في كتابه قوت القلوب ويتبعه بالتعليق التالي : "وذلك الخصوص يرتدون الآية بقلوبهم على قلوبهم ويتحققون بها في مشاهدتهم بمدد من شهيدهم وسيدهم حتى يستغرقهم الفهم فيغرقون في بحر العلم". (انظر : أبو طالب المكي، قوت القلوب، ج1، ص72). وبناء على هذا القول يرى الصوفية أنّ الدالّ مثلثس حتماً بفهم صاحبه وهو مخلوق في حين أنّ المدلول قديم موصول بخالقه وهو المقصود، لذا لا ينبغي التوقف عند الدوال والاكتهاء بها لأنها مجرد معبر للمدلول إنما يجدر بالعباد أن يترقى عنها عبر تصفية الباطن ليلبغ المقصود. وفي هذا يقول الصوفي عبد العزيز المهدي : "صاحب المتشابه الذي قرأ الحروف لفظاً وأخذها تقليداً بكونه حدثه غيره عن فهمه أو رأى تأويل المفسرين فاقتصر عليه فكان مقلداً.. لأنه كان مع العلم لا مع الحال وكلّ من صار عنده حال كان القرآن جميعه محكماً" (عبد العزيز المهدي : محجة القاصدين وحجة الواجدين، مخطوط بمكتبة آل عاشور بتونس، تهذيب عبد الرحمان البجائي، رقم243، الورقة99).

(2) انظر في هذا السياق تعريف المقدس في فصل "sacré" ضمن "Encyclopédia universalis". أو مقال : "المقدس : المصطلح والمفهوم" لعبد العلي الدكالي. ضمن : مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 118-119، ربيع/صيف2001..

(3) الكتاب والكتابة كما وردت في مادة "كتب" في لسان العرب تحمل دلالات الخط والجمع (الكتاب اسم لما كتب مجموعاً) والاحتواء (الكتاب ما يكتب فيه) والفرض والحجم والقدر والأمر..

(4) يمكن في هذا السياق مراجعة عدة كتب مثل :

من استعمال لهذه العبارة استنادا إلى سياقاتها القرآنية وقد غلبت عليها صيغتان الأولى التعريف والإطلاق والثانية الإضافة والتخصيص.

أما الأولى فمن قبيل ما نجده في الآية الثانية من سورة البقرة : "ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ" والآية 48 من سورة آل عمران : "وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ". ولم تقتصر دلالة الكتاب في هذه الآيات على القرآن إنما شملت الإنجيل وسائر ما يتلى من الكتب السماوية (1).

وأما الثانية فافتقرت بعبارة "أهل" وكان المخاطب بها مخصوصا وتمثل في اليهود والنصارى في مثل الآية : "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ" (2). والآية : "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ نَقْصُمُونَ مِثْرًا إِنْ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ" (3).

وقد حضرت هذه الصيغة في واحد وثلاثين (4) موضعا من النص القرآني وحملت حسب عدد من المفسرين نوعا من التودد والتقرب واللفظ والتنبيه والتحذير قصد استمالة الآخر ودعوته إلى الإسلام أو تذكيره بصلته بربه وفضله عليه وإيقاظه من غفلته.

إن تواتر حضور هاتين الصيغتين في النص القرآني أنتج موقفين مختلفين من فهم المقصود بالكتاب :

✓ أصحاب الموقف الأول استندوا إلى صيغة الإطلاق فعمموا مفهوم الكتاب ليشمل كل من اعتقد دينا سماويا وكان له كتاب منزل كالنوراة والإنجيل والزبور والصحف (5)...

---

- محمد عابد الجابري : مدخل إلى القرآن الكريم : الجزء الأول : في التعريف بالقرآن. الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر، 2006.

- محمد شحرور : الكتاب والقرآن. الطبعة الأولى، دار سينا للنشر، القاهرة، مصر/ الأهالي، دمشق، 199.

(1) انظر مثلا الآية 53 من سورة البقرة : "وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ".

(2) سورة آل عمران، الآية 64.

(3) سورة المائدة، الآية 59.

(4) محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 592.

(5) أبو الحسن علي بن الأثير الجزري : الكامل في التاريخ، ج1، ص31.

✓ أما أصحاب الموقف الثاني فاستثمروا الإضافة ليقصروا معنى الكتاب على التوراة والإنجيل ويحصروه في اليهود والنصارى، فهؤلاء هم المقصودون عندهم بأهل الكتاب<sup>(1)</sup>. وهم يؤكدون موقفهم هذا بالاستناد خاصة إلى الآية : "أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ"<sup>(2)</sup>. فالمقصود بالطائفتين في قراءتهم لهذه الآية اليهود والنصارى دون غيرهم.

إلا أنّ هذا الفهم قاصر عن الإيفاء بمعنى الكتاب ودلالاته، إذ يرى محمد شحرور مثلاً أنّه يتجاوز حتى الإنجيل والتوراة ليعبر عن التشريع الخاص بموسى وعيسى وفق الآية : "وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ"<sup>(3)</sup>. يقول محمد شحرور : "الكتاب هو الرسالة والحكمة هي الوصايا والتوراة هي نبوة موسى والإنجيل هو نبوة عيسى ومجموعهم هو الكتاب المقدس"<sup>(4)</sup>. ويقول أيضاً : "الكتاب عند موسى وعيسى هو التشريع فقط، أما عند محمد صلى الله عليه وسلم فهو النبوة والرسالة معا"<sup>(5)</sup>.

ويبدو أنّ هذا الانفتاح في دلالة لفظ الكتاب في النص القرآني هو الذي سمح للصوفية بتطويع فهمه لما يستجيب لتصورهم للحقيقة الدينية، وجعلهم يتبنون الموقف الأول الذي يعمّم مفهوم الكتاب ولا يقصره على اليهود والنصارى وحدهم، ويتجلى هذا مثلاً في موقف عبد العزيز المهدي<sup>(6)</sup> وهو واحد من شيوخ محي الدين بن عربي إذ يقول معرّفاً الكتاب : "الكتاب عبارة

---

(1) محمد بن أحمد القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، تحقيق إبراهيم اطفيش، ج7، ص144.

(2) سورة الأنعام، الآية156.

(3) سورة آل عمران، الآية48.

(4) محمد شحرور : الكتاب والقرآن، ص67.

(5) المرجع السابق، ص138.

(6) هو أبو محمد عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدي، ولد بالمهديّة وعاش بها، تتلمذ على أبي مدين شعيب، كان متشدداً في تربية نفسه، توفي سنة 621هـ-1224م. له عدة كتابات مازالت مخطوطة مثل الصلاة المباركة ورسالة محجة القاصدين وحجة الواصلين.. (انظر مثلاً : ابن الطواح : سبك المقال لفك العقال، صص52-62)



عن الظرف للقرآن والتوراة والإنجيل والزبور، فالتوراة للتفصيل والإنجيل للاتساع والقرآن للتبيين" (1).

إنّ الكتاب بهذا الاعتبار يحقق دلالاته اللغوية بالوضع (2)، ويصبح بمثابة الوعاء الجامع والحاوي لمختلف الشرائع السماوية والدال عليها والواصل بينها، ويصدر هذا الفهم عند الصوفية عن قراءة للنص الديني من جهة وعن تصور مخصوص للإنسان ووجوده وعلاقته بخالقه ولحقيقة الأديان وصلاتها، ممّا يدعو إلى إعادة النظر في صورة الآخر وينأى به عن معايير الإقصاء والالتهام ليحل محلها مفاهيم الحب والتواصل والاحتواء. وقد تجلّى هذا في كتابات الصوفية في مستويات عدة إذ نلمسه في عقيدتهم وسلوكهم وأقوالهم..

## II. الكتاب المقدس والآخر في نصوص الصوفية :

ليس من العسير على قارئ كتابات الصوفية أن يلاحظ حضور مصادر دينية متعددة ومنتمية لحضارات إنسانية مختلفة فهم لا يكتفون بالنص القرآني وحده، وإن كان عمدتهم في تأصيل عقيدتهم وسلوكهم، إنّما يستدعون نصوصا من التوراة والإنجيل والزبور.. وهذا صادر عن تصور مخصوص لفعل التدين وللعلاقة بالله يتجلّى في فهمهم للكتاب المقدس إذ يعدّونه - سواء كان قرآنا أو إنجيلا أو توراة أو زبوراً.. - تجليا من تجليات العلم الإلهي اختص به الخالق صفوة خلقه وأنزله فيهم في أزمنة مختلفة لاختبار مدى وفائهم بالميثاق (3) الذي التزموا به لحظة الخلق، وتنبههم وإيقاظهم من غفلتهم وتذكيرهم بالدور المنوط بعهدتهم، وهو يراعي في تنزيله حاجة كل عصر

---

(1) عبد العزيز المهدي، محبة القاصدين وحجة الواجد، تهذيب عبد الرحمان البجائي، مكتبة آل عاشور بالمرسى، تونس، رقم 243، الورقة 97ظ.

(2) انظر مثلا : محمد شحرور : الكتاب والقرآن، صص 51-52.

(3) كثيرا ما ينطلق الصوفية في قراءتهم لفعل الخلق من الآية 172 من سورة الأعراف ومتنها : "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ". وهم يعدّونها علامة على التوحيد الأمثل الذي أقربت به البشرية قبل أن تمتزج الأرواح بالأجساد ويتحقق لها انفصالها عن آدم فتستقر ذواتا مستقلة لها تصرفها الخاص لشؤونها. فهي (أي لحظة الميثاق الواردة في الآية المذكورة) وفق قراءة الصوفية مصرّفة بربها فانية عن ذواتها.

وقدرته أو طاقته على تقبل هذا العلم أو هذه المعرفة فلا يقدم إليهم ما يفوق هذه الطاقة ويتجاوز هذه الحاجة إنما يدّخرها لوقتها.

ويأتي هذا التصور ضمن قول الصوفية بالحقيقة المحمدية وقد حملت في كتاباتهم تسميات عدة مثل النور والقلم والكلمة الجامعة.. وجميعها يميّز بين لحظتين في بروز هذا العلم :

الأولى كانت بالقوة قبيل خلق آدم استنادا إلى حديث ينسب إلى النبي وهو محدود من الأحاديث الموضوعة ومع ذلك تردد كثيرا في كتابات الصوفية ومتمته : "كنت نبيا وادم بين الماء والطين" <sup>(1)</sup>، وتميز العلم في هذا الطور بالاكتمال والكمون ويمثل باطن النبوة المحمدية وهي في عرف الصوفية سابقة لوجود آدم باعتبارها أول حقيقة يخلقها الله ويجعلها منشأ لكونه ومنطلقا لفيض وجوده ونوره على المخلوقات وفي هذا يقول سهل التستري : "لله أنوار ثلاثة أول وثان وثالث. فالأول محمد الحبيب صلى الله عليه وسلم لأنّ الله تعالى لما أراد أن يخلق محمدا أظهر من نوره نورا أثار المملكة كلّها. فلما بلغ العظمة سجد فخلق الله من سجده عمود نور مشفّ كالزجاجة.. فيه عبد محمد صلى الله عليه وسلم بين يدي ربّ العالمين.. قبل خلق الخلق بألف ألف عام.. وخلق آدم من نور محمد وحينئذ محمدا من طين آدم.. والثاني آدم والثالث من آدم ذريته.. " <sup>(2)</sup>.

أمّا الثانية فوجود بالفعل عبر مراحل متتابعة أبانت عنها سلسلة الأنبياء والرسول واختتمت ببعثة الرسول محمد وقد تجسدت فيه المعرفة الإلهية كاملة وتجلت في رسالة القرآن <sup>(3)</sup>.

---

(1) انظر : ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، مج 1، ج 4، ص 4.

(2) أبو الحسن علي بن محمد الديلمي : كتاب عطف الألف المألوف على اللام المعطوف، ص 33.

(3) يستثمر الصوفية هذا التصور في عقد الصلة بين مفهومي النبوة والولاية استنادا إلى حديث نبوي أورده الدارمي في سننه (تحديدا كتاب المقدمة) وكذلك ابن حنبل في مسنده (تحديدا مسند الأنصار) ومنه : "العلماء هم ورثة الأنبياء". ويرسمون ترقّيه في المقامات والأحوال بناء عليه واعتمادا على تتابع الأنبياء وخصالهم مثل التوبة لأدم والصبر لأيوب.. وفي هذا يقول الصوفي أبو مدين مثلاً (هو شعيب بن الحسن الأنصاري الأندلسي البجائي المعروف بأبي مدين الغوث ولد بالقرب من إشبيلية بالأندلس سنة 510هـ/1116م غادر مسقط رأسه صغيرا إلى

وهذا يؤكد أن جميع الديانات في العقيدة الصوفية إنما تغترف علومها ومبادئها من معين واحد وتتهل منه باختلاف أزمناها وأماكنها، وكان القرآن خاتمتها وعنوان اكتمالها وحاوي خطوطها الكبرى.

إن مثل هذا التصور من شأنه أن يلغي معايير الإقصاء والحذر في التعامل مع الآخر دون التعدي على هويته أو خصوصيته، فلكل ديانة مميزاتها وطقوسها وحدودها التي رسمت لها وأسست لوجودها، كما أن جميع هذه الديانات لا تعدم حضور خيط ناظم يصل بينها ويقرب ما تباعد من أصولها فهي تتقاطع عند المصدر الواحد الذي نشأت عنه وتلتقي عند المقصد الواحد الذي بعثت له وهو عبادة الله وتوحيده.

ولعل هذا الفهم هو ما سمح لأبي الحسن علي بن محمد الديلمي بالتخفيف من حجم اتهام المسيحيين بالعدول عن التوحيد في قولهم بعقيدة التثليث، إذ يقول : "سمي الاثنان زوجا والثلاثة أفرادا، ولهذا صارت النصراني أقرب إلى التوحيد مع قولهم بالتثليث من المجوس مع قولهم بالتثنية، لأن النصراني ادعوا الثلاثة واحدة ولم يثبتوا غيرية، والمجوس أثبتوا غيرية وضدية وانقسامًا. وغرضنا في ذلك تصحيح التوحيد" (1).

فهو يراهم غير بعيدين عن مفهوم التوحيد وهذا يتلاءم مع الرغبة في تصحيح معتقداتهم وتعديل إيمانهم ويصلح ليكون منفذا لمحاوَرَتهم واستقطابهم. بدل أن يكون تعلقة لمجرد الطعن فيهم واتهامهم وتكفيرهم.

---

المغرب تحديدا مدينة فاس وجلس إلى حلقات الفقهاء والذاكرين، أخذ طريق التصوف عن أبي عبد الله الدقاق وأبي الحسن السلاوي، استقر ببجاية بعد أداء مناسك الحج وأضحى مجلسه مقصدا لعدد الصوفية. توفي سنة 594هـ/1197م ودفن بتمسان وقد ترك مجموعة رسائل وحكم وأشعار.. : "لا يجلس على رتبة البيعة إلا من تمسك بآئتي عشرة مسألة، يتمسك من آدم بالحزن والبكاء ومن أيوب بالصبر والديانة ومن يوسف بالصدق والصيانة ومن موسى بالإخلاص والمناجاة ومن عيسى بالزهد والسياسة ومن محمد صلى الله عليه وسلم بالتواضع وحسن الخلق" (محمد التادلي : تحفة العاشقين في ذكر الأولياء الصالحين. مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 926، الورقة 111(ظ)). ويدرج الصوفية هذا التصور ضمن القول بالحقيقة المحمدية ويعتبرون القطب ممثلا لها وهو منتهى الطريق الصوفي وخاتمة كما أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة الرسل والأنبياء.

(1) أبو الحسن علي بن محمد الديلمي، كتاب عطف الألف المألوف على اللام المعطوف، ص38

ويؤكد هذا التوجه أكثر من خلال عدم تخرج الصوفية من الاستدلال على مواقفهم وتصوراتهم بشواهد من الكتب المقدسة مثل الإنجيل والتوراة، إما بالتصريح أو بالتلميح، فالترمذي مثلاً في "منازل القربة" يورد شواهد منسوبة إلى النبيين موسى وعيسى فيقول :

✓ روي عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يا رب، أوصيتني بصلة الرحم.." (1).

✓ قال أبو عبد الله رحمه الله : "وسألت عن قول عيسى صلوات الله وسلامه عليه : "حب الدنيا رأس كل خطيئة" (2).

والقشيري أيضاً في الرسالة القشيرية لا يتردد في إيراد الصيغ التالية :

✓ "جاء في الإنجيل : اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب.." (3)

✓ "وفي بعض الكتب أن موسى عليه السلام قال : يا رب أين تسكن ؟ فأوحى الله تعالى إليه : في قلب عبدي المؤمن" (4).

✓ "وفي الزبور : القانع غني ولو كان جائعاً" (5).

كما يورد على لسان عدد من الصوفية اعتمادهم هذه الكتب دون احتراز أو خشية، إذ ينقل عن السري السقطي قوله : "جاء في بعض الكتب التي أنزلها الله تعالى : إذا كان الغالب على عبدي ذكرني عشقني وعشقتة" (6). وقوله أيضاً : "أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : بي فافرحوا، وبذكرني تنعموا" (7).

---

(1) أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي : منازل القربة، ص 67.

(2) المصدر السابق، ص 109.

(3) القشيري، الرسالة القشيرية، ص 144.

(4) المصدر السابق، ص 143.

(5) المصدر السابق، ص 99.

(6) المصدر السابق، ص 144.

(7) المصدر السابق، ص 144.

يقيم التصوف بذلك جسور تواصل مع الآخر بعيدا عن الإقصاء والاستهجان والتكفير، منطلقه كما بيّنا إيمانه واعتقاده في الحقيقة المحمدية، ووحدة المعبود مهما كانت الديانة المتبعة، شعاره قدرة العبد على التمييز والإدراك متى تمكن من بلوغ درجة من الصفاء الروحي أو الباطن، مقرها القلب وأساسها الذوق ومعدنها الحب الإلهي سنده في ذلك الهبة أو المنة الإلهية أو الجذب وهو ما يتحقق عادة بعد خوض مرحلة شاقة من السلوك يستحضر فيها الصوفية مختلف تجارب الأنبياء ويسعون إلى معاشتها (1).

ويكفل بلوغ مثل هذه الدرجة توقف الصوفي عند جوهر الحقيقة وعندها تستوي الأسماء والطقوس والشعائر وتتقاطع عند الهدف الأسمى وهو التوحيد الإلهي. فلا يعود للانتماء الديني أو المذهبي معنى لأنّ الفوارق والاختلافات تمحي في وجدان العبد ليحلّ محلّها المعبود الواحد فيكون منه وبه وإليه التصرف والتصرف.

يقول الحلاج في هذا السياق :

تَفَكَّرْتُ فِي الْأَدْيَانِ جِدًّا مُحَقِّقٌ      فَالْفَيْئَتَهَا أَصْلًا لَهُ شُعَبٌ جَمًّا  
فَلَا تَطْلُبُنَّ لِلْمَرْءِ دِينًا فَإِنَّهُ      يَصُدُّ عَنِ الْأَصْلِ الْوَثِيقِ وَإِنَّمَا  
يُطَالِبُهُ أَصْلٌ يُعَبِّرُ عَنْهُ      جَمِيعُ الْمَعَالِي وَالْمَعَانِي فِيْقَهْمَا. (2)

(1) انظر مثلا تعريف أبي الحسن الشاذلي للأولياء فهم حسب رأيه : "على ضربين صالحون وصّدّ يقون، فالصالحون أبدال الأنبياء والصّدّيقون أبدال الرسل.. مادة كل نبي وكل ولي بالأصالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم" (الكوهن : طبقات الشاذلية الكبرى، ص36). أوقول أبي مدين السابق ذكره : " لا يجلس على رتبة البيعة إلا من تمسك باتنتي عشرة مسألة، يتمسك من آدم بالحزن والبكاء ومن أيّوب بالصبر والديانة.." (محمد التادلي : تحفة العاشقين في ذكر الأولياء الصالحين. مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 926، الورقة 111(ظ)). فكلاهما يؤكد الصلة المتينة التي يقيمها الصوفية بين الولي الصوفي والنبي في سياق تصورهم للحقيقة المحمدية وفهمهم للحديث النبوي : "العلماء ورثة الأنبياء" (رواه ابن ماجه في كتاب السنن، 223). وهو ما يمنحهم في عرفهم القدرة على التمييز بين الحق والباطل والاختصاص بالعلم الإلهي.

(2) الحسين بن منصور الحلاج، الديوان، ص6.

ويقول ابن عربي :

وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ أَكْثَرُ صَاحِبِي إِذَا لَمْ يَكُنْ دِينِي إِلَى دِينِهِ دَانَ  
لَقَدْ صَارَ قَلْبِي قَابِلًا كُلَّ صُورَةٍ فَمَرَعَى لَغْزَلَانٍ وَذَيْرَ لِرُهْبَانٍ  
وَبَيِّنَتْ لِأَوْتَانٍ وَكَعْبَةٍ طَائِفٍ وَالْوَاحُ ثَوْرَانٍ وَمُصْحَفُ فَرَّانٍ  
أَدِينُ بِدِينِ الْحَبِّ أُنَى تَوَجَّهَتْ رَكَائِبُهُ فَالْحُبُّ دِينِي وَإِيمَانِي. (1)

بهذا لا يكون بلوغ الحقيقة حكرا على المسلم وحده إنما يتاح لكل من استطاع بلوغ درجة من الصفاء الروحي وتمكن من تجاوز ظاهر الرسوم والشعائر ونفذ إلى باطنها وطوّعها لمقاصده. وهذا ما يتيح مجالا أوسع لحرية الاعتقاد شرط ألا ينغلق العبد فيها ويتخذها هدفا وغاية في حدّ ذاتها، يقول ابن عربي : "إياك أن تتقيد بعقد مخصوص وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيولى لصور المعتقدات كلها فإنّ الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد" (2).

وهذا يعني أنّ العبرة لا تكون بالطقوس والشعائر أو بالأسماء والحروف والأشكال.. إنما تكون بالقدرة على سبر أغوار الأشياء والنفوذ إلى باطنها، فالكتاب - مهما كان زمنه ومكانه - حامل للغة صاحبه متلبس بفهمه له فهو المبلغ عنه. وفرق عند الصوفية بين المبلّغ والمبلّغ عنه، لأنّ الدال مخلوق والدلالة قديمة كما أنّ كلام البشر حادث وكلام الله أزلي، وطرق التعبير عن المعنى الواحد قد تختلف وتأويلها أو فهمها بدوره متعدد، لذا يرى الصوفية ضرورة عدم التوقف عند الرسوم وظواهر الأشياء وعدم الاكتفاء في قراءتها باللغة ومواضعاتها أو بالعقل وأحكامه لأنّ هاتين الوسيطتين تقصران عن الإلمام بالمقاصد.

لكن ألا يعدّ هذا ضربا من نفي النص ومن ثمّ الكتاب ؟ فلم تعد حروفه ومفرداته وجمله دالة في حدّ ذاتها، إنما تشتق من رحم التجربة الروحية التي يخوضها المتعبد وفق درجة صفائه الباطن واستعداده لتقبل المنن الإلهية.

(1) ابن عربي، ترجمان الأشواق، صص 43-45.

(2) ابن عربي، فصوص الحكم، ص 113.

ألا يصبح الكتاب أداة طيعة للصوفي يصرف دلالاته تصريفا فرديا يتلاءم وأحواله أو مرتبته وطاقة تقبله أو حاجته ؟ سنده في ذلك أنه أوتي من الله ما لم يؤت غيره فهو من الخواص المتفردين بالمنة الإلهية المؤتمنين على علمه وسره. ألا يمكن أن يولد هذا مفارقة بين خاصة وعامة ويقدم صورة للآخر تحضر فيها أمارات التهميش والإقصاء والاتهام بالقصور مرة أخرى؟ خاصة والصوفية يلحون على جانب الكتمان لما يعتبرونه سرا إلهيا ويرون أفق تقبل العصر غير قادر على استيعاب معارفهم وعلومهم. وهو ما جعلهم في صدام دائم مع غيرهم وخاصة الفقهاء (1).

يحاول الصوفية الخروج من هذه الدائرة الضيقة بعملهم على توضيح شمول تجربتهم وعدم اقتصارها على فئة دون أخرى فكل إنسان بمقدوره خوض هذه التجربة وبلوغ الغاية فيها. بهذا تخترق الحواجز بين الديانات، يجمعها ويؤلف بينها العمل على تصفية الباطن وتوجيه الهمة إلى المعبود الأوحد وهو الله. دون أن يعني هذا قطعا التسوية بين القرآن وسائر الكتب السماوية. إذ يبقى هذا الكتاب (القرآن) المصدر الأول عندهم والحكم الفيصل فيما يلتبس عليهم وتظل سائر الكتب مراجع يستأنسون بها ويتجارب أصحابها ويدعمون بها اعتقادهم.

### خاتمة :

لقد مثل الفهم الشائع للكتاب المقدس أداة للاحتراز من الآخر ووصمه بالخداع والزيف ونصب العداء والكيد والتمويه، ودعا إلى اتهامه وتكفيره والتشكيك في صحّة عقيدته برفض طقوسه والإعراض عن نصوصه، وهو فهم لم يبلغ حضور تصوّرات مغايرة تنسب الحكم المطلق على الآخر وتعيد تمثّل مفهوم الكتاب المقدس ضمن منظومة متكاملة تراعي مقتضيات الزمان والمكان وطبائع اللغات، وتعترف بخصوصية كلّ ديانة وهويّتها وتؤكد تقاطعها مع غيرها في المنطلق والمقصد.

---

(1) انظر في هذا السياق : توفيق بن عامر : مواقف الفقهاء من الصوفية في الفكر الإسلامي. حوليات الجامعة التونسية، العدد 39، السنة 1995، صص 63/7.

وقد سمح هذا بتجاوز هذه النظرة الاحترازية أو الإقصائية، واستبدالها بأخرى تتشد التقارب والتجاور والاستقطاب والاحتواء، وهي لا تقتصر على أصحاب الكتب السماوية وحدهم إنما تنفتح لتستوعب وتشمل جميع أشكال التعبد حتى الوضعي منها باعتبارها في وجه من وجوها تجلّ من تجليات القدرة والوجود الإلهيين. وهو ما لاحظنا في نصوص الصوفية إذ نظر أصحابها إلى الكتاب انطلاقاً من فهم مخصوص جامع ينطلق من خلق النور المحمدي ويمر بجميع الأنبياء والمرسلين وصولاً إلى القرآن والرسالة المحمدية، العمدية فيه للمدلول قبل الدال لأنّ الأوّل قديم إلهي، دائم، مطلق وثابت أمّا الثاني فمخلوق بشري، زائل، نسبي ومتغير.

وقد تجلّى هذا الفهم في مقالاتهم وسلوكهم ونظرتهم إلى الآخر. و يبدو أنّ هذه النظرة لم تكن حكرًا على رجال التصوف إذ نجد لها صدى عند عدد من مفكري الإسلام مثل إخوان الصفاء إذ يقولون : "ينبغي لإخواننا أيّدهم الله تعالى ألا يعادوا علما من العلوم أو يهجروا كتابا من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب لأنّ رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها.. علومنا مأخوذة من أربعة كتب : أحدها الكتب المصنفة على السنة الحكماء والفلاسفة من الرياضيات والطبيعيات والآخر الكتب المنزلة التي جاءت بها الأنبياء صلوات الله عليهم مثل التوراة والإنجيل والفرقان وغيرها من صحف الأنبياء المأخوذة معانيها بالوحي من الملائكة.."<sup>(1)</sup>.

وينبغي أن نشير إلى أنّ هذه النظرة لا تعني القبول المطلق من رجال التصوف الإسلامي لما جاء في سائر الديانات أو التسوية بينها تسوية مطلقة ففي أخبار الصوفية ما ينسب هذا الموقف لرفضهم قبول ما عدّوه في هذه الديانات وسلوك أصحابها أو عقائدهم من عدول مثل رفض الرهينة والقول بالتثليث والحلول.. وسعيهم إلى تعديل مثل هذه السلوكات وإصلاحها سواء بمحاوراة أصحابها أو البحث في خلفياتها ومرتكزاتها أو بيان مواطن الخلط والقصور فيها.

---

(1) رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، الرسالة الخامسة والأربعون من رسائل إخوان الصفاء : "في كيفية معايشة إخوان الصفاء وتعاون بعضهم مع بعض وصدق الشفقة والمودة في الدين والدنيا جميعا"، المجلد الرابع، صص 42، 41.



## قائمة المصادر والمراجع

### المصادر المخطوطة :

- محمد التادلي : تحفة العاشقين في ذكر الأولياء الصالحين. مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 926.
- عبد العزيز المهدي : محجة القاصدين وحجة الواجدين. تهذيب عبد الرحمان البجائي، مكتبة آل عاشور بالمرسى، تونس، رقم 243.

### المصادر المطبوعة :

- ناصر الدين الألباني : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة. الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، 1384.
- عبد الواحد محمد بن الطواح : سبك المقال لفك العقال. تحقيق ودراسة محمد مسعود جبران، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1995.
- محيي الدين بن عربي : ترجمان الأشواق. دار صادر، بيروت، 1981.
- محيي الدين بن عربي : فصوص الحكم. تحقيق ودراسة وتعليق الدكتور أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1946.
- الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي : تفسير القرآن العظيم. الطبعة الأولى، دار الخير، بيروت/ دمشق، 1410هـ، 1990م..
- إخوان الصفاء : رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء. طبعة دار صادر بيروت، د.ت.
- أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي : منازل القربة. تحقيق خالد زهري. الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة الدار- البيضاء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1423هـ/2002م.
- أبو الحسن علي بن الأثير الجزري : الكامل في التاريخ. دار الفكر العربي، بيروت، د.ت.

- الحسين بن منصور الحلاج : الديوان. جمعه وحققه لويس ماسينيون، الطبعة الثانية، باريس، 1955.
- أبو الحسن علي بن محمد الديلمي : كتاب عطف الألف المألوف على اللام المعطوف. حققه وقدمه ج. ك. فاديه، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1962.
- محمد بن أحمد القرطبي : الجامع لأحكام القرآن. تحقيق إبراهيم اطفيش. الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1952.
- الحسن بن الحاج محمد الكوهن الفاسي : كتاب طبقات الشاذلية الكبرى المسماة جامع الكرامات العلية في طبقات السادات الشاذلية. طبعة أولى، المطبعة العلامة، مصر، 1374هـ.
- أبو القاسم عبد الكريم القشيري : الرسالة القشيرية، شرح وتقديم نواف الجراح. الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، لبنان، 2001.
- أبو طالب المكي : قوت القلوب. الطبعة الأولى، المطبعة المصرية، 1351هـ/1932م.

#### المراجع :

- محمد عابد الجابري : مدخل إلى القرآن الكريم : الجزء الأول : في التعريف بالقرآن. الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر، 2006.
- محمد شحرور : الكتاب والقرآن. الطبعة الأولى، دار سينا للنشر، القاهرة، مصر/الأهالي، دمشق، 199.
- رمزي نعاية : الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير. الطبعة الأولى، دار القلم، دار الضياء، بيروت، 1390 هـ/ 1970م.

#### المقالات :

- توفيق بن عامر : مواقف الفقهاء من الصوفية في الفكر الإسلامي. حوليات الجامعة التونسية، العدد39، السنة1995، صص763/.
- عبد العلي الدكالي : المقدس : المصطلح والمفهوم. مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد119، ربيع/صيف2001، صص5673-.

## الموسوعات والمعاجم :

- موسوعة السنة : الكتب الستة وشروحها. الطبعة الثانية، دار سحنون، تونس-  
دار الدعوة، اسطنبول، 1413هـ/1992م.
- محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. مؤسسة جمال  
للنشر، بيروت، د. ت.